العرب
السبت 2021/10/23
السنة 44 العدد 12218

قيس سعيد والمرزوقي باعتباره خراجا إخوانيا

فاروق يوسف
كاتب عراقي

هُزمت حركة النهضة الإسلامية بتونس بيسر. ما إن أصدر الرئيس قيس سعيد قراراته بتجميد البرلمان وإقالة رئيس الحكومة من عمله حتى التف الشعب التونسي حوله.

قبل يومها إن الرئيس يختال بشعبيته. كانت "الشعبوية" تهمته الجاهزة. ولكن ما الذي كانت تفعله حركة النهضة عبر عشر سنوات أذاقت فيها الشعب شتى صنوف العازة والفقر والحرمان والتمييز والعزل وهي تختال بشرعية ولائه لها؟

ألم يكن ذلك غطاء شعبيا لكل أنواع الفساد الذي مارسته النهضة وهي تتخذ من الخطاب الديني وسيلة للتضليل والخداع؟

في حقيقة الأمر فإن النهضة خسرت أخلاقيا قبل أن تخسر سياسيا. ما التقطه الرئيس سعيد كان الشعب قد اطلع عليه قبل سنوات. لقد ظهرت حركة النهضة أثناء سنوات حكمها على حقيقتها تنظيما يمتزج فيه التشدد بالفساد بالتبعية لدول أخرى. لم تكن تونس بالنسبة إلى ذلك التيار السياسي اليميني سوى قاعدة لتحرك جماعة الإخوان من موقع قريب من مصر. وهو موقع يهم الأوروبيين كثيرا.

المرزوقي يخدع العالم بماضيه اليساري بينما يدافع عن حركة ظلامية انصب كل جهدها عبر عشر سنوات على إفقار وتضليل الشعب التونسي ووعده بحياة أخرى مطمئنة فيما كانت الفوضى عنوانا لرئيسا لحقبتها

المنصف المرزوقي وهو رئيس سابق لتونس ليس إخوانيا. إنه يساري المنشأ والتفكير واللغة. غير أن ذلك لا يعني أن الرجل يوم كان رئيسا لم يضع منصبه في خدمة الأجندة الإخوانية. في واحدة من أهم سقطاته أن الرجل دافع عن الجماعات الإرهابية التي تحارب في سوريا. لذلك فإنه حين يقود مظاهرة في باريس من أجل المطالبة بتجميد المساعدات الأوروبية لتونس فإنما يعبر عن حقيقة موقفه اللاوطني. كانت الديمقراطية على خطأ حين وضعته رئيسا على تونس.

أحيانا تتحول أخطاء الديمقراطية إلى جرائم عظمى، هتلر نموذجا.

الرئيس الأسبق لتونس يخدع العالم بماضيه اليساري في حين أنه يدافع عن حركة ظلامية فاسدة انصب كل جهدها عبر عشر سنوات على إفقار وتجهيل وتضليل الشعب التونسي ووعده بحياة أخرى مطمئنة فيما كانت الفوضى هي العنوان الرئيس لحقبتها.

ليس الرئيس التونسي الأسبق وحيدا في ذلك التناقض القاتل. اليسار التونسي كله ارتكب الحماقة نفسها حين رأى في إجراءات الرئيس سعيد خروجا على الحياة الديمقراطية وانتهاكا للدستور.

لقد جهزت أحزاب اليسار المهزومة سياسيا قاعدة بديلة لحركة النهضة التي انفض عنها أنصارها، بل أن زعيمها راشد الغوشي صار معزولا في مكان ميت لا يتجاوز الإطار الحزبي.

اللافت أن ذلك اليسار وقد تناغم مع رغبة الإخوان في تونس في أن يمثلوا دور الضحية التي انتهكت حقوقها بسبب ما اعتبروه ضربة وجهها الرئيس سعيد للحياة الديمقراطية صار يخاطب الغرب بلغة يعرف أنها ستكون مسموعة هناك.

فـ"الديمقراطية" التي يريدها الغرب للدول الأخرى التي تقع خارج محيطه هي مفهوم مجرد من الأخلاق. لا يهم أن تكون فاسدا وسياسيا في الوقت نفسه ما دمت قد وصلت إلى الموقع الذي يمكنك من التمسك بهياكل الشرعية الانتخابية وهي تفصيل قُدر له أن يكون بديلا عن الحياة الديمقراطية الحقيقية التي توجب الشفافية ومساءلة الفاسدين.

وهكذا بدأ البعض يحرضون على تدخل الغرب في الشأن الداخلي التونسي، متناسين أن ذلك التحريض هو نوع من الخيانة. فليست الديمقراطية مجرد مسمى بقدر ما هي معنى يتعمق من خلاله مفهوم الوطنية. فالدول الديمقراطية هي أكثر الدول التي يتمتع مواطنوها بحرية التعبير عن آرائهم في الأداء الحكومي وأداء الحزب الحاكم بما يجعلهم قادرين على المراقبة والدعوة إلى المساءلة إذا ما تطلب الأمر.

ولو كانت الحياة الديمقراطية في تونس بهذا المستوى لتمت إحالة الكثير من أفراد حركة النهضة وفي مقدمتهم زعيمها إلى المحاكم بسبب ما شهده البلد من انهيارات سياسية واقتصادية واجتماعية في العشرية السوداء التي حكمت فيها النهضة تونس.

ولكن الديمقراطية التونسية التي جعلت منها حركة النهضة مركبها السكران كانت عبارة عن الاستيلاء على أصوات العامة الذين سيكونون ضحية جاهزة لألعاب التضليل والخداع ومن ثم الفساد الإخواني الذي لن يقف أمام أطماعه وطن أو مواطنون. فالإخوان لا يعترفون بالأوطان ولا بحقوق الإنسان فكيف يعترفون بالمواطنة؟

ما يصرح به مسؤولون صغار في الولايات المتحدة أو في الاتحاد الأوروبي إنما يأتي منسجما مع شعور إخواني بأن الهزيمة يمكن تجاوزها عن طريق تضييق الخناق الدولي على تونس وبالأخص على الصعيد الاقتصادي. خيانة واضحة غطاؤها الخوف على الديمقراطية الوليدة التي اعتبرها الإخوان هبة الغرب لهم.

ولكن ما فات الإخوان في تونس أن المؤسسة السياسية الغربية تدرك جيدا أن رئيسا يحترم الدستور مثل قيس سعيد يعرف أن ما قام به لا يتعدى نزع القشرة عن مسببي الفوضى باسم الديمقراطية لذلك فإنها لا تتخذ قراراتها بناء على عويل كاذب أو دموع مخاتلة. كما أنه ليس من مصلحة أجهزة المخابرات الغربية أن تفتح تونس ملفات حركة النهضة وأحزاب اليسار التونسي معا.

هُزمت حركة النهضة من الداخل حين انفضت عنها جماهيرها غير أن المنصف المرزوقي هزم نفسه بنفسه حين أعلن تخليه عن أهم مبدأ من مبادئ المواطنة بتحريضه الآخرين على بلده.

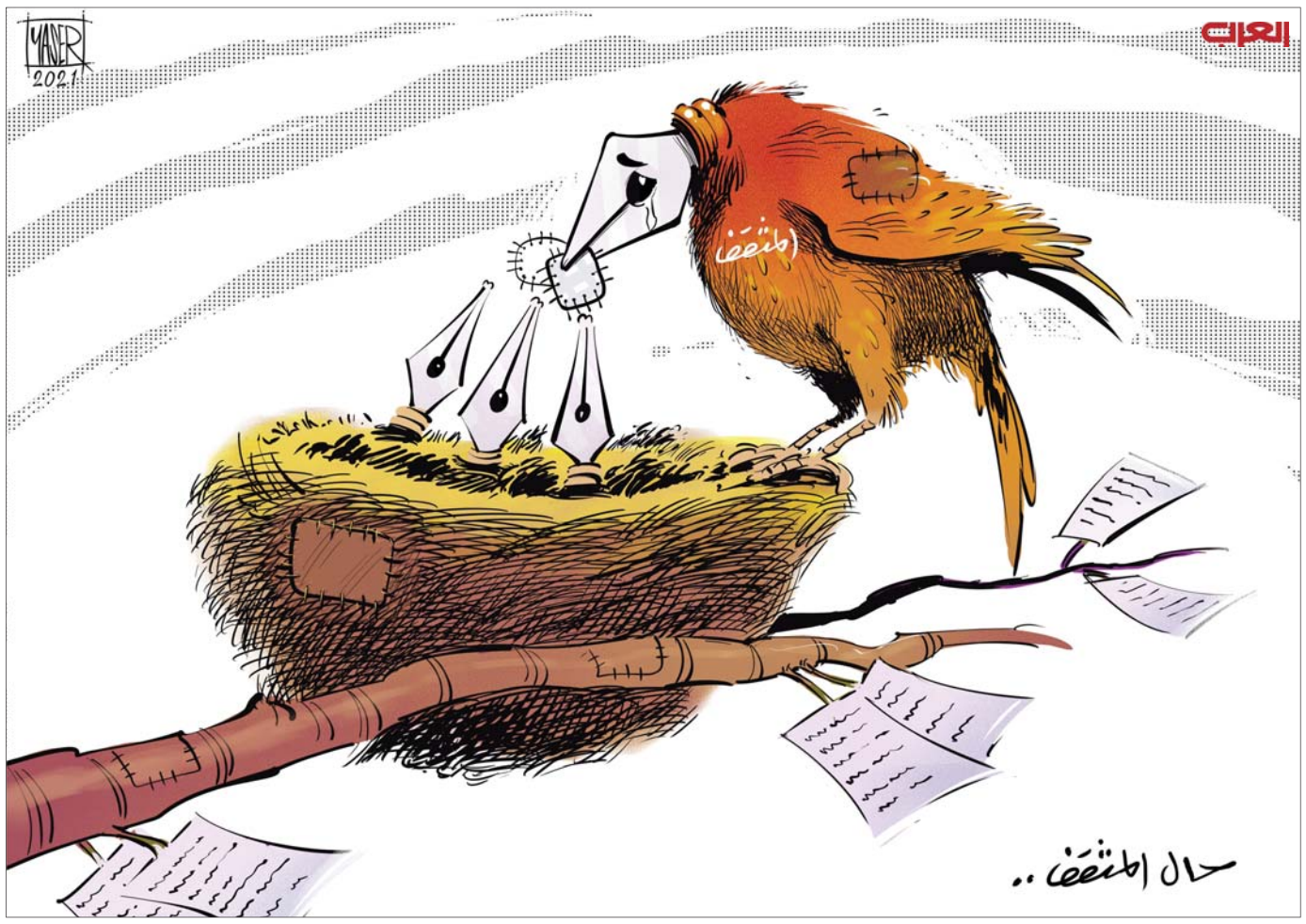

كيف انتصر الجهل في العراق

علي الصراف
كاتب عراقي

لا أعرف كم بقي من المثقفين العراقيين الذين لم يرضعوا من حليب الميليشيات. ولكني أعرف أن المئات منهم جاعوا وباعوا كتبهم وتشردوا، حتى خلت الساحة لما بقي من أنصاف. وطغت قضايا أخرى مع طغيان العنف والفساد، فأسقطت كل ما اعتلى ذلك الصرح المجيد الذي أنتج قائمة الأسماء الطويلة لمثقفي هذه البلاد.

ويا الله كم كانوا كثرا. ويا الله كم كانوا يشقون من الطرق ما لم يُشق من قبلهم، من محمد مهدي الجواهري إلى معروف عبدالغني الرصافي وجميل صدقي الزهاوي إلى بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وبلند الحيدري. ومن عبدالوهاب البياتي وسعدي يوسف ويوسف الصايغ وحميد سعيد إلى مظفر النواب وعريان السيد خلف وكريم العراقي وفاضل العزاوي وصادق الصايغ وزهير الجزائري ورضا الظاهر وعلي جواد الطاهر وفوزي كريم ومحمد الجزائري وياسين النصير وسامي مهدي، ثم عدّ، لو شئت أن تملأ هذه الصفحة بكبار الأسماء الأخرى التي راكمت، جيلا بعد جيل، مجدَ ثقافة وفكر وأدب أقرب في شمله واجتماعه إلى المعجزة.

المئات منهم احتشدوا بأسمائهم ليبنوا منارة تشع في كل الأرجاء، وما كان أعلاها. وكان لكل منهم رايات ترفرف حتى لتظن أن العراق جنة من جنات الخلد في الأدب والفن.

من سبق جواد سليم الذي أقام نصب الحرية، فعاد رمزا ومكانا لاجتماع الباحثين عن الحرية؟ ومن سبق فرقة "مسرح الفن الحديث"، ليقول للمسرح العربي كله، ها هنا المدرسة الأوفى، وها هم معلموها وروادها الكبار من سامي عبدالحميد ويوسف العاني وخليل شوقي إلى إبراهيم جلال وكريم عواد وفاروق فياض وفخري العقيدي وقاسم محمد وبدري حسون فريد وجعفر السعدي وفوزية عارف وزينب وناهدة الرماح وفاضل خليل وعوني كرومي.

لقد كانوا صانعي حياة. شعلة تنير الظلمات في المجتمع والسياسة، وتحرث أرضا للأمل.

ولكن لم يمض وقت طويل بعد أن أتم الغزاة غزوة الجهل والفساد الصفوي، حتى بدأت تطوف الترهات وتسبح لتقول لهذا العراق وبقايا شعبه "مثل النجس بالماي، جيتك مطوّف".

وما من مفر من الاعتراف بأن الحزب الشيوعي العراقي كان هو رائد الصرح المجيد، وهو منشأ توليده وتجديده، وميدان كل المعتركات، حتى ليستغرب المرء كيف تحررت الثقافة لتندفع في كل آفاق الإبداع، بينما ظلت الستالينية السياسية قائمة فيه؛ كيف كان المبدعون في الشعر والنقد والرواية والفن، يتزاحمون ويؤلّفون الجمهرة النفيسة، بل الجمرة المتقدة، بينما كان حزبهم يتعثر في السياسة إلى حد العماء.

هذا كله ضاع. وضاع معه ذلك الحزب نفسه عندما صار يلطم على الحسين تماشيا مع السائد، وعندما وجد نفسه منخرطا في عملية سياسية لم يجن منها إلا الفشل والخسران حتى لكأنه ليس أبا ذلك الصرح، أو حافزه ومحركه.

لقد كان قوة تنشد التغيير، فكرا، ولو بفشل التنظيم والسياسة. وكلما زادت القسوة عليه، كانت الثقافة هي الرد، وهي التحدي، وهي قول البقاء.

ولم يكن بوسعه، بفضل إرثٍ ضاغطٍ، أن ينحدر إلى القاع، فعاد ليتمردَ. ظاهريا، فعل ذلك احتجاجا على دولة الفساد والمحاصصة الطائفية، ولكن باطنيا لكي يتخلص من تحالفه المخزي مع "التيار الصدري".

ما يسود اليوم من "شعبوية" ضحلة، هو في الواقع نتاجٌ لذلك الضياع، وثمرةُ الفوضى التي أغرق الحزب الشيوعي العراقي نفسه فيها عندما اختلطت عليه الأولويات، بل وعندما أضاع الوطنية مرتين. مرة في مواجهة الغزاة الأميركيين حتى انتهى إلى التجالس في مجلس حكمهم. ومرة عندما ظن أنه يستطيع، بدوافع النمط الانتهازي من مبررات البقاء، أن يلتحق بالفئة الطائفية الخسيسة التي هيمنت على العراق.

افتراض "الشطارة" بحثا عن موطئ قدم بين الأنذال، أوقع مثقفيه في مستنقع ما كان ليخرج منه فكر ولا أدب. كان الأمر أشبه بانزلاق العجلات خارج السكة، فقتل وجرح كل راكبي القطار.

افتراض «الشطارة» بحثا عن موطئ قدم أوقع مثقفي الحزب الشيوعي في مستنقع ما كان ليخرج منه فكر ولا أدب وكان الأمر أشبه بانزلاق العجلات خارج السكة فقتل وجرح كل راكبي القطار

يسود الجهل في العراق بسبب اندحار مثقفيه وتراجع مكانتهم. وهو حادث مؤسف صنعه حزب الثقافة والفن والأدب دون سواه.

شيء ما كان يمكن أن يستدعي رمي لجنته المركزية كلها بالشط. ليس لأنها اختارت السبيل الخطأ، بعد السبيل الخطأ، قبل الغزو وبعده، بل لأنها كما الأم التي قتلت أطفالها واحدا واحدا، من أجل موطئ قدم في المزبلة.

الثقافة تنمو في بيئة الحرية فقط. وحيثما كان المتنفسُ العام يضيق حتى الاختناق، فقد كان الحزب الشيوعي نافذة سريّة تتفتح من خلالها كل الأزهار. تُبهجه وتبتهج به، علنا حينا، ومن وراء ستار في معظم الأحيان. تنقده، وتتحداه وتخرج عن طوعه، ويظل يعتبرها طفله الأثير. وما من مثقف وجد نفسه، في هذا السياق، "إبنا عاقا" حيال المسافة بينه وبين مسقط رأسه، على الإطلاق، ولو تمردَ أو عقّ.

وفي المأساة التي انتهى إليها العراق، ولدت انتفاضة تشرين لتحيي ما كان قد شارف فيه على الوفاة. كانت صفعةَ صحوٍ لتقول لحزب التغيير، أن أخرج مِّن المستنقع الذي أغرقت نفسك فيه. فإن لم تجد أرضا في السياسة، لعلك تجدها بين أغاني المحتجين وهتافاتهم وقصائدهم القصيرة.

ليس عجيبا أن تكون المتنفس من جديد لحركة تحرر ثقافي تنقلب على المجرى الطائفي القائم.

فرقة مسرح واحدة كانت تكفي في الأيام الخوالي لتحشد الآلاف من القناعات والتصورات المختلفة. وتقترح نقدا للسائد، وتستجلب رؤى أخرى للحياة.

هذا هو الميدان. ليس مطلوبا أكثر منه، ليس بالضرورة ليكون حزب سلطة (أعوذ بالله)، وإنما ليكون حزب تغيير في الثقافة. حزب فكر وفن وأدب.

إذا كان ذلك هو أفضل ما فيك، وأعظم ما تمتلكه في فلسفة البحث عن نقاء، فلماذا تفعل شيئا آخر؟

تاريخ العراق يغص بالفشل السياسي. كما يغص بمن اعتلوا الصرح المجيد الذي صنع له تاريخا آخر.

والمفارقة العجيبة هي أن الحزب الشيوعي العراقي، وحده إلى حد بعيد، هو المسؤول عن هذين التاريخين. مسؤولٌ أيضا عن بؤس النتائج والخلاصات.

ولا عجب أن ينحدر العراق من مأساة إلى أسوأ منها. ومن انحطاط إلى آخر أعمق عندما ضاع الاتجاه بهذا الحزب بالذات.